رئيف خوري، داعية الديمقراطية والعروبة
لأحمد عُلبي

الحاجة إلى هذا الكتاب

يقول أحمد علبي، في مدخل كتابه[١]: «لو استوقفت طالب علم من الجيل الحالي، بل ربَّما كاتباً ناشئاً، واستفسرته عن رأيه في رئيف، فالرَّاجح عندي أنَّه سيجيبك مقطِّباً، مستنكراً، مستوضحاً: من هو رئيف خوري؟ ومن عساه يكون؟» (ص. ٢٢).

يبدو أنَّ علبي يسوِّغ، بهذا القول، سعيه إلى تقديم معرفة برئيف خوري (١٩١٣ ـ ١٩٦٣)، كما يبدو أنه يبيِّن الحاجة إلى مثل هذا الكتاب الذي يقدِّم هذه المعرفة. ومن المفارقات التي تؤكِّد قول علبي، آنف الذكر، أنَّ طالباً يعدُّ أطروحة دكتوراه في اللغة العربية وآدابها رأى هذا الكتاب على مكتبي، فسألني: «من هو رئيف خوري، ليُصنَّف عنه كتاب بهذا الحجم!؟».

إنصاف أعلام منائر في فضاء حبٍّ وحماسة...

وإذ يلبِّي علبي حاجةً معرفيَّة، ويسهم في إنصاف علم من الأعلام التقدميِّين المنائر، في تاريخ الثقافة العربيَّة، فإنَّه يسهم في الوقت نفسه، وفي كتابه هذا، في إنصاف كوكبة من هؤلاء، أمثال: فؤاد الشمالي، فؤاد حبيش، عمر فاخوري، يوسف إبراهيم يزبك، سليم خياطة، مصطفى العريس، هاشم

(١) د. أحمد علبي، رئيف خوري، داعية الديمقراطية والعروبة، بيروت، دار الفارابي، ط. ١، ٢٠٠٣.

الأمين، حسين مروة، سلامة موسى، نقولا الحداد، محمد دكروب، فرج الله الحلو، قدري قلعجي...، مقرِّراً أنَّه بذلك إنَّما يفي «بعض ما لديهم من دينٍ علينا» (ص. ١٢٧). والواضح أنه يقصد إلى ذلك، أي لا يستطرد إليه استطراداً، فيقول على سبيل المثال: «الإنصاف يدعونا إلى ذكر فؤاد حبيش والترجمة له لأنه مهمل» (ص. ٦٩ و٧٠).

ولعلَّ الشعور بوجوب «وفاء الدِّين» للأعلام التقدميين المنائر... جعل الفضاء النصِّي لهذا الكتاب فضاء حبٍّ لهم وحماسة في الدِّفاع عنهم، فعلى سبيل المثال، نلحظ أنه يأسف لوصف أحد الكتَّاب لقدري قلعجي، بأنه «بوق»، ويعلِّق، مدافعاً عن «قلعجي» ومشيراً إلى تحوُّل هذا الكاتب الذي كان أحد قادة الحزب الشّيوعي بقوله: «إنَّه ـ قدري قلعجي ـ لم يكن يوماً يتحدَّث في الحرَّة» (ص. ٢٩٣)، كما أنَّ هذا الشعور نفسه جعل هذا الكتاب كتاباً عن رئيف خوري وعن هؤلاء الأعلام، وعن أمور كثيرة، ويتَّضح لنا ذلك ممَّا يأتي:

ما يتضمَّنه الكتاب

يتألَّف الكتاب من مدخل يتضمَّن مقالات للكاتب عن رئيف خوري في غير ذكرى، ومن ثمانية أقسام وخاتمة، فيتحدَّث أوَّل الأقسام عن مسيرة أديب مكافح، وثانيها عن رئيف والحزب، تراجيديا مثقَّف عربي، وثالثها عن ألبوم رئيف خوري، ورابعها عن رئيف والمسألة القوميَّة، وخامسها عن جريدة الدِّفاع، وسادسها عن مسرحيته الشعريَّة «ثورة بيدبا»، وسابعها يقدِّم منتخبات من تراثه، وثامنها يوثِّق نتاجه الأدبي والفكري.

نعرض، على سبيل المثال، ما جاء، في القسمين: الأوَّل والثاني، وفيهما محوران أساسيان من محاور الكتاب، لنتبيَّن ما ذهبنا إليه.

في القسم الأوَّل، يقدِّم معرفة بنابيه، وملحمتها، ومغارتها وأسرة رئيف خوري، ومدرسة تحت السنديانة، وجوّ الجامعة الأميركية الذي «كان يطفو فوقه تياران»: أوَّلهما قومي، ينشطر إلى عروبي متلفِّح بالإسلام والآخر قومي سوري مجاهر بالعلمانية، وثانيهما المنادي بالأفكار الاشتراكية (ص. ٦٤)،

واستطراداً، يُطرح هنا سؤال مفاده: إلى أي تيار ينتمي رئيف من هذين التيارين؟ هو عروبي، لكنَّه مسيحي، ما يعني أنَّه ينتمي إلى التيار الأوَّل ويختلف عنه في آن، وهو المنادي بالأفكار الاشتراكية، ما يعني أنَّه ينتمي إلى التيار الثاني؟

وفي القسم الثاني، يتحدَّث عن نشأة الأحزاب في مصر، وبراعم الاشتراكية في مصر ولبنان، ثم وبعد طواف طويل يتحدَّث عن مسيرة رئيف الحزبيَّة، ليصل، بعد سبعة فصول، إلى الفصل الثامن ليتحدَّث فيه عن تراجيديا مثقف عربي، المتمثِّلة في ظلم ذوي القربى.

الطَّواف والنَّبش

يبدو أنَّ علبي يقصد إلى القيام بهذا الإجراء، ويسمِّيه طوافاً، فيقول، على سبيل المثال: «ونعود، إثر هذا الطواف على سلامة موسى ونقولا حداد، إلى فؤاد شمالي (١٨٩٤ ـ ١٩٣٩) وكتابه الاشتراكية» (ص. ١٢٣). ولا يكتفي الباحث بهذا «الطَّواف» الأفقي، إن صحَّ التعبير، وإنَّما يقوم بإجراء آخر عمودي، إن صحَّ التعبير أيضاً، يتمثَّل في ما نسمِّيه «النَّبش»، فهو يقول، على سبيل المثال، عن كثير من الوقائع والمعلومات: «ونحن لها لنابشون، إن أسعفتنا الظُّروف» (ص. ٤٤٦).

يعود هذا الإنجاز المتميِّز، والمتمثِّل بالطواف والنَّبش إلى جهود كبيرة بُذلت في أوقات عديدة، قد تكون متباعدة، أثمر كلٌّ منها مقالة أو دراسة، ثمَّ جُمعت هذه المقالات والدِّراسات في هذا الكتاب الضَّخم، وهذا يفسِّر التكرار الذي نلحظه فيه، فهو يكرِّر، على سبيل المثال، قضايا منها: إهمال رئيف والأعلام المنائر، ووفاته باكراً، وأستذته له، وتعليمه، وخطابته في فلسطين، ومعاصرته لثورة ١٩٣٦، والمقارنة بين نابيه وبرمانا...

يدرك المؤلِّف أنَّه يكرِّر، فيقول، على سبيل المثال: «وقد تحدَّثنا مليَّاً، في غير موضع من هذا الكتاب، عن نشاط رئيف الثوري في فلسطين، وعن وقفاته الخطابية...»، (ص. ١٣٩)، ويقول، في مثال آخر: «... وقد أفضت غير مرَّة في البحث والتقصِّي عن سيرته وأدبه» (ص. ٤٤٩).

ولـمَّا كان المرسل/الدافع إلى إنجاز هذا الكتاب سدادَ دينٍ وإنصاف أعلام تقدُّميين منائر، بدا الخطاب الذي يؤدِّي ذلك حيوياً يتدفق بحماسة تلوِّن لغته السليمة الجميلة، أحياناً، بالشعريَّة، ومن نماذج ذلك نقرأ: «... وإذ نكرم ذكرى رئيف خوري، فإنَّما نحتشد لتكريم المثل النبيلة، رئيف كالخمرة المعتقة تضيف الأيام على نكهة اسمه عتاقة ونفاسة وجلالة» (ص. ٢٨٧). ونقرأ: «... إنَّ الخمرة المعتَّقة تضفي عليها الأيام نكهة ونفاسة»، ونقرأ: «رنين كهذا الذي ينبعث من إناء نحاسي تاريخي فاخر آن أن تلامسه أصابعنا» (ص. ٨٧).

يبدو أنَّ علبي قد لاحظ ما يتصف به خطابه من «حدَّة»، فهدَّأ من هذه «الحدَّة»، ونقرأ ما يقوله في هذا الصَّدد: «ولا بدَّ أنَّ القارئ قد يكون لاحظ الهدوء الذي هيمن على القلم عندنا، ونحن نورد هذه الأكذوبة التي يختبئ وراءها بعضهم للنَّيل من رئيف خوري وتزييف سيرته ومعتقده» (ص. ٢٧١).

يلاحظ أنَّ علبي يستخدم، في خطابه هذا، مفرداتٍ تدلُّ على جرأته في الاشتقاق، ومن نماذج ذلك أذكر: غميس في «غميس الديمقراطية»، وأزنادهم في «عوَّلوا على أزنادهم»، ومقحم في «مقحم القلب»، وأسلة في «أسلة قلمه»، وبـجِّيش، ومضحاك، كأنَّه في هذا يتتلمذ على أستاذه رئيف خوري، في استخدامه مثل هذه المفردات التي يسميِّها «لقى تستوقف القارئ»، مثل «تفكهة ودعاب سفساف» و«الخيوط» و«عوج»...

لكن قد تلتبس الدَّلالة في بعض هذه الاشتقاقات، كما في «مضحاك»، على سبيل المثال، بدلاً من ضحَّاك أو ضحوك؛ إذ إنَّ مضحاك هي صيغة مبالغة من أضحك، يضحك، مضحك، لا من ضحك، ضاحك، ضحَّاك وضحوك، واختلاف المعنى بين صيغتي ضحَّاك ومضحاك واضح.

مسائل نتحدَّث عنها

ولـمَّا كان الكتاب، في معظم مادته، مقالات ودراسات كتبت في مناسباتٍ عديدة، تكرِّر الكلام على المسألة الواحدة في غير موضع منه، ويستطيع القارئ أن يجمع ما تناثر عن هذه المسألة أو تلك، فيحصِّل معرفة

وافية بها، وقد يكون في هذا الصَّنيع كثير من الفائدة، إذ إنَّه يشرك القارئ في الجمع والتَّأليف والاستنتاج، فلا يقتصر دوره على التلقي، وإنَّما يتجاوزه إلى المشاركة في التأليف وإنتاج المعرفة.

المسائل التي يتكلم عليها الكتاب كثيرة جدَّاً نتحدَّث، في الوقت المتاح لنا عن بعضها، فنتحدَّث عن شخصيَّة رئيف خوري وأسلوبه. ووصفه بالدَّاعية «داعية العروبة والديمقراطية» و«تراجيدياه» مع الحزب الشيوعي وخصائص أدبه.

شخصيَّة رئيف خوري

يمكن لقارئ كتاب علبي أن يرسم الصُّورة الآتية لرئيف خوري:

قامة سنديانية، جسم معافى، شعر متطاير، وجه عريض تعلوه ابتسامة طلقة، صريحة، لا يعوزها من القهقهة غير الصَّوت، ابتسامته عنوان الصحَّة، الصحَّة التي يتمتَّع بها جسمه وروحه على السواء، يمشي الهوينا، مباعداً بين رجليه، يتطلَّع إلى الوجود بعينين حادَّتي النَّظر، فيه حنُّو وطيبة، وخلق رفيع، لم تحبطه إساءات الأقربين من رفاقه قبل خصومه الفكريين، فبقي كفلاح طيِّب، طاهراً كالقدِّيسين، وفيَّاً لأصدقائه ومبادئه وفاء المطر للأرض، كان فيض نبل وغيريَّة ومكارم أخلاق، موسوعي المعرفة، ذكي، ذو ذهنٍ ثاقبٍ لمَّاح، ساخر، ذكي السخرية، متعدِّد المواهب، متَّسع الاهتمامات، سريع البديهة، سأله مطران: متى تخلع الجبة الحمراء؟ فأجابه، وهو يبتسم، ويهز رأسه: عندما تخلع الجبَّة السوداء! متنوِّع الكتابات: أديب، قاص وشاعر وكاتب مقالة أدبية واجتماعية، وسياسية وكاتب خاطرة تنفذ إلى جواهر الأمور، وهي «على سنِّ الرمح»، وكاتب مسرحيَّة، ناقد أدبي، باحث مفكِّر، وتربوي، معلِّم، مؤلِّف كتب تعليم، مترجم قدير، خطيب مفوَّه، صحفي بارع، ترعرع في بيت مشبع بالعلم، ومنفتح على الفكر اليساري، نهل العربيَّة من فم والده المعلم نجم. عمل في الصحافة والتعليم طوال حياته، وواصل الكتابة من عام ١٩٣٠ إلى عام ١٩٦٧، عام وفاته، غنيٌّ بما يدرُّه عليه عمله، لم يطمع في مالٍ، أو مغنم، أو جاهٍ أو منصب، يتنقَّل من معهد تعليمي إلى آخر، ومن مقرٍّ صحيفة إلى أخرى متأبِّطاً أوراقه، متمهِّلاً في مشيته، تتدلى السيكارة من فمه، والسبَّحة في يده،

من قامات لبنان وبلاد العرب الكبار، كأنه خاتمة السلسلة الآفلة من كبار المنوِّرين العرب، وتميَّز منهم بجمعه بين الأصالة الأدبيَّة الراقية والاستنارة الفكرية المتقدمة، لديه خمسة وعشرون كتاباً موضوعاً وخمسة كتب مترجمة، وعدد من الدِّراسات والمقالات المطويَّة في بطون الصحف وثنايا المجلات، يعادل كتبه المطبوعة والمنشورة، وقد أحصاها علبي ووثَّقها «للحفاظ على جزء غالٍ من تراث رئيف خوري مخافة عليه من النسيان والضياع».

ومن أجوبة رئيف الساخرة والدالَّة على رؤيته إلى التعليم والفرق بينه وبين التعلُّم إجابته الآتية عن سؤال طرحته عليه مجلة صوت الطَّلبة: «تخرجت في جامعة بيروت الأميركية بدرجة بكالوروبس علوم. منذ اثنتين وثلاثين سنة،... منذ ذلك التاريخ، أجتهد في تحسين أحوالي الثقافية بنسيان ما تعلَّمت، وأترك لك الحكم: هل قدِّر لي أن أنجح؟» (مجلة صوت الطلبة، مجلة طالبية تصدر عن مدرسة البطريركية في بيروت، نيسان ١٩٦٥، ص. ٢).

مناضل شيوعي بالكلمة والموقف، وإن لم يكن منتمياً للحزب تنظيماً، عاش «تراجيديا» المثقف الحزبي الذي بقي ممتلكاً حسَّه النقدي، ورؤيته/ بصيرته النافذة إلى جواهر الأشياء، وشجاعة القول في مناخ الاستبداد السائد.

إن يكن أسلوب الإنسان هو الإنسان نفسه، فإن أسلوب رئيف خوري هو رئيف خوري نفسه، وهو، كما يرى علبي، أسلوب متفرِّد، لا تكلُّف ولا دوران ولا تكرار فيه، مباشر وواضح، جمع بين «عتاقة الأدب العربي وحداثته»، فكان مزيجاً بينهما لا أنفس ولا أبهى، جمع بين الأصالة والحداثة في عجين ذي نكهة...، هو عصارة الأدب والفكر، وتنسينا ترجمته أنها منقولة عن لغة أخرى لغلبة الأسلوب العربي المتين عليها.

داعية الديمقراطية والعروبة

وهنا يثار سؤال مفاده: هل يكون صاحب أسلوب هو «عصارة الأدب والفكر» «داعية»، كما جاء في العنوان الثاني للكتاب: «داعية الديمقراطية والعروبة»؟

في سبيل الإجابة عن هذا السؤال، نقول: إنَّ فَهِمْنا معنى «الداعية» بأنَّه الدَّاعي إلى مذهبه ومعتقده أو حزبه بخطاب سياسي حماسي مباشر، لا يرقى إلى مستوى الخطاب الفكري الباحث المنقِّب المتأمل، تكن الإجابة: «لا»، ولا نكون بعيدين عن الصواب عندما نقرِّر أنَّ علبي أجاب في كتابه بالإجابة نفسها عن هذا السؤال، فهو يميِّز بين فئتين من مقارعي الفاشيَّة: أولاهما تتمثَّل في رئيف خوري وسليم خياطة اللذين كتبا فكراً سياسياً وأدباً ملتهباً بحس النضال وعصب المسؤولية التاريخية، وثانيتهما تتمثَّل في قادة آخرين ظل ما قدَّموه خطباً ومقالات سياسيَّة فحسب (ص. ١٧٧).

وإن عدنا إلى النداء الذي وجهه رئيف خوري إلى أبناء الفكر العربي، تحت عنوان: «أين نحن، أبناء الفكر العربي»، نجده يصدِّر هذا النَّداء بالآية الكريمة: ﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ﴾ [**الغاشية**، ٨٨/ ٢١]، فهل تعني داعية، في عنوان الكتاب، المعنى نفسه الذي تعنيه كلمة «مذكِّر» في الآية المذكورة، قد تكون الإجابة: نعم، لأنَّ رئيف يصف نفسه بهذه الصفة، وتعني صاحب رسالة.

كان رئيف خوري، مذكِّراً، خطيباً، ومناضلاً، و«فلتة الشوط» في ذلك، ولكنه كان، وفي المقام الأوَّل، «مذكِّراً» أديباً، مفكِّراً في المقام الأوَّل. وهذا ما يقوله علبي: «لا أخصَّ، في رئيف خوري أنه أديب...»، «مزية كونه أديباً هي النعت الغلَّاب» (ص. ٥٥٥). وهنا لا أبعد سؤالاً مفاده: لمَّا كان رئيف أديباً ناقداً في المقام الأوَّل، فلم اقتصر البحث على كونه داعية العروبة والديمقراطية، ولم يتم البحث في «نعتة الغلَّاب»؟

يبدو أنَّ علبي قد خطر له هذا السؤال، فقال كأنَّه يجيب عنه: كان لديه «في حياته الأدبيَّة أقنومان لم يحد عنهما: الديمقراطية والعروبة» (ص. ٤٦٠).

وإن يكن رئيف لم يحد في حياته عن هذين الأقنومين، فإن السؤال الذي يطرح هو: عن أيِّ ديمقراطية وعروبة لم يحد؟

يبدو واضحاً، كما يقول علبي، أن رئيف انتقد ما سمَّاه الديمقراطية البرجوازيَّة وبيَّن مفاسدها... ثمَّ بيَّن، معوِّلاً على التجربة السوفياتية ـ وهنا يعلِّق

علبي: وليته لم يعوِّل! ـ كيف أنَّ البروليتاريا الصَّاعدة ستؤدِّي الدور التاريخي البنَّاء (ص. ٢٤). ثمَّ نجد مفهوماً آخر للديمقراطية لدى رئيف، وذلك عندما يصوغ الموقف السياسي العالمي، آنذاك، بأنه صراع بين الديمقراطية المخلصة الاشتراكية من جانب والفاشستية وديكتاتورية أصحاب الملايين من جانب آخر، ونتوقَّف هنا عند «آنذاك»، فالموقف من الديمقراطية ملموس في سياق المسار التاريخي، ويضيف رئيف، فيكمل صوغ موقفه، فيرى أنَّ البرجوازية ذات وجهين: متحرِّرة في بلادها، مشجِّعة في مستعمراتها كل أنواع الإقطاع والتخلُّف، ثمَّ يقرِّر أنَّ لا حل إلا بالديمقراطية التي ستنشئ مجتمعاً جديداً، يتمثَّل بالمجتمع الذي أنشأته ثورة اكتوبر، أي الثورة البلشفية (راجع: ص. ١٧٦ و١٧٧).

أمَّا العروبة فيفهمها، كما يبيِّن علبي، فهماً علمياً راقياً، وهو صاحب «معالم الوعي القومي»، الصادر عام ١٩٤١، الذي ردَّ به على قسطنطين زريق، وقد تجلَّى انتماؤه العروبي في موقفه من القضية الفلسطينية، فألَّف كتاب «جهاد فلسطين»، ونشره بتوقيع «الفتى العربي»، ونظم من وحي الواقع الفلسطيني مسرحية «ثورة بيدبا» سنة ١٩٣٦، وكان خلافه مع الحزب الشيوعي، كما هو معروف، بسبب اعتراضه على موقف الاتحاد السوفياتي من قرار التقسيم. والعروبة التي ينشدها هي العروبة النيِّرة التقدميَّة، الديمقراطيَّة، التي تضمُّ تحت جناحيها جميع أبنائها من أي طائفة كانوا، هي عروبة الأحرار.

الخلاف مع الحزب الشيوعي

في شأن الخلاف مع الحزب الشيوعي، يتحدَّث علبي عن تجربة رئيف الحزبيَّة، فيرى أنَّه كان، وإن لم يكن حزبيَّاً منظَّماً، حزبيَّاً عاملاً في ميدانه، قدَّم للحزب الشيوعي وللسوفيات ما لم يقدِّمه أديب عربي آخر (راجع ص. ٢٦٣). فقد تغنَّى بالتجربة السوفياتية في كتابه: «الثورة الروسيَّة: قصَّة مولد حضارة جديدة». ونظم ثلاث قصائد في ستالين (أبا الأحرار، الست والعشرون، مجدِّد الزَّمان)، فتغنَّى به بوصفه بطلاً شبه أسطوري، وترجم كتاب جدانوف: «إن

الأدب كان مسؤولاً» الباحث في الأدب والنظرية الأدبيَّة، وكلٌّ من ستالين وجدانوف معروف، فالأوَّل طاغية، والثاني يرى إلى الأدب من منظور إيديولوجي ضيِّق، ويريد له أن يكون خطاباً دعوياً لا خصوصيَّة أدبيَّة نوعيَّة فيه.

يسوِّغ رئيف مديحه لستالين بأنَّ ذلك كان في مناخ الصِّراع مع النازيَّة والفاشستيَّة، الذي انتهى بهزيمتهما، وإنجاز بناء الدولة الاشتراكيَّة... ويسوِّغ ترجمته لذلك الكتاب بقوله: «جاءنا الأمر بترجمته فترجمناه» (ص. ٨٧ و٢٢١).

إن يكن الأمر هكذا، فما سبب الخلاف مع الحزب الشيوعي إذاً؟ ولم مرَّ عليه حين من الدَّهر، كما يقول علبي، عبث به رفاقه، ورموه بضروب الافتراء، وصار موضوعاً للرسوم الكاريكاتورية المسفَّه على منبر كان أحد مؤسِّسيه ورعاته البارزين؟

المتداول أنَّ السبب يعود إلى أنه جاهر برأيه الصريح المستقل في ما يخصُّ القضيَّة الفلسطينيَّة، رافضاً وقوف الاتحاد السوفياتي إلى جانب تقسيم فلسطين. الواقع أنَّ هذا هو السبب المباشر والمعلن، والحقيقة هي أنَّ هناك قضايا أخرى، كثيرة، كما يروي مصطفى العريس للدكتور علبي، من دون أن يفصح عن هذه القضايا.

يبدو أنَّ هذا الخلاف المعلن مظهر من مظاهر ظاهرة محليَّة وعالميَّة، ولنقل إنسانيَّة، تتمثَّل في موقف الأديب المفكِّر الممتلك حسَّاً نقديَّاً ورؤية ديمقراطيَّة وشجاعة قول الرأي الحر، في موقف هذا الأديب المفكِّر من نهج السُّلطان المستبد، والمتمثِّل آنذاك بنهج ستالين عالمياً وخالد بكداش محليَّاً.

الأديب الحقيقي يرى إلى العالم من منظور نقدي، يسأل، يفكِّر، يجيب، يكوِّن رؤية، يحاور، يقول من دون خوف، لا يؤلِّه الشخص، يقول رئيف في «ثورة بيدبا»:

وما بهرتني الأسماء يوماً وفي الأسماء تمويه (ص. ٣٢٣)

الالتزام

وهنا نتوقف لدى الالتزام، ففرق، كما هو معروف، بين الالتزام والإلزام، بين الالتزام وليد التجربة الشخصية، الالتزام الذاتي، والإلزام وليد أمر الآخر...، وإن كان رئيف ملزماً بالأمر الحزبي لدى ترجمته كتاب «جدانوف»: «إنَّ الأدب كان مسؤولاً»، فإنَّه كان ملتزماً لدى كتابته نصوصه، ومنها دراسة «القلم المسؤول» ومساجلته مع لويس عوض ومناظرته مع طه حسين...، وفي كتابه: «الأدب المسؤول».

خصائص أدب رئيف خوري

إن يكن علبي لم يُفرد قسماً، أو فصلاً، لرئيف الأديب، وإن يكن قال عن مقالته وشعره: «ليس هنا مجال دراستهما» (ص. ٤٤٤)، فإنَّ القارئ يستطيع أن يجمع ما تناثر عن هذه المسألة، ويؤلِّف منها ما يمكن وضعه تحت عنوان: «خصائص أدب رئيف خوري: نثره وشعره».

نلحظ، بداية، أنَّ رئيف خوري يكتب القصة والشِّعر والنَّقد الأدبي وتاريخ الأدب. وفي قسم من قصصه يختار قصصاً من التراث، ويعيد إنشاء ما يختاره من منظور قصصي تشكِّله رؤيته إلى العالم، وأنَّ شعره يقسم إلى نوعين: أوَّلهما غنائي غزلي حواري، شرع فيه منذ بدايات نظمه للشعر، وثانيهما شعر أملته عليه وطنيته واندفاعه القومي وحسِّه الإنساني (ص. ٢٦٣)، وتمثَّل، في قسم منه، في شعر مسرحي. وفي شعره، وبخاصَّة في مسرحيته «ثورة بيدبا»، تطويع للأوزان للتعبير عن المعاني المختلفة والمواقف المتباينة.

ليس، في شعره، تزويق لغوي، وإنَّما أبيات تتدفق في سلاسة وشاعرية لتبلور ما يشغل صاحبها من معانٍ، وما يضج في صدره من أحاسيس (ص. ٦٥ و٤١٠). وشعره مشبع بالرأي، وفي قاعِه تنمو الأفكار الجميلة (ص. ٤٤٤). ويلاحظ أنَّ أدبه بعامَّة يتميَّز بغلبة السَّرد على أي نمط من أنماط الخطاب الأخرى. وقد قال الياس أبو شبكة، مقرِّراً هذه الميزة في أدبه، فقال: إنَّه «يتوسَّل»، في كتاباته، «التاريخ المروي» (ص. ٦٢٢).

وإن يكن أديباً من طراز رفيع، ومفكِّراً تشغله قضيَّة الإنسان المعذَّب والمضطهد (ص. ٢٤٣)، فإنَّه كان يرى، بوصفه ناقداً أدبياً ومؤرِّخ أدب، إلى الشعراء والشعر من منظور إنساني جمالي. ويتضح ذلك، على سبيل المثال، عندما يكتب عن الشاعر عبد السلام بن رغبان (ديك الجن)، فعندما يكتب عنه يرى إليه بوصفه شاعراً عاش تجربة حياتية فريدة، مثَّلها شعراً فريداً، وفي دراسته له عُني بالتجربتين، الإنسانية والجماليَّة، بمعزل عن المعايير الدينية والأخلاقية، ومن أسفٍ أن ناقداً مثل إحسان عباس أخذ عليه أنَّه لم ينظر إلى هذين العاملين لدى اختياره الكتابة عن هذا الشاعر الماجن.

كما يلاحظ أنَّه عني بدراسة تجربة شعرية فريدة في تاريخ الشعر العربي، تمثَّلت في شعر السجون عندما قدَّم بدراسة مطوَّلة لديوان: «حصاد السجن» لأحمد الصافي النجفي الصَّادر عن دار الكشاف في بيروت عام ١٩٥١، هذا فضلاً عن أنَّه أبدع في تأليف كتب تدريس الأدب العربي (ص. ٤١٠).

غنى معرفيّ

في الختام، يمكن القول: إنَّ الكتاب غنيٌّ بالمعرفة المقدَّمة في فضاء حب الأعلام التقدميين المنائر والوفاء لهم والسعي إلى إنصافهم.

❐❐❐